نفسيتان عاتبتان

بين البحترى والمتنبى

للاستاذ احمد احمد بدوى

يقول « بيفون Buffon » العالم الفرنسى فى حديثه عن الأسلوب : «ان أسلوب الشخص هو الشخص نفسه » . يريد بذلك أن أسلوب الكلام ، وطريقة عرض الفكرة ، هى الصورة التى تتبين فيها خلال الشخص النفسية ، ومنهجه فى الفهم والتفكير .

وهذا القول صادق الى حد كبير ، فان الكاتب والشاعر يتركان خصائصهما فى أسلوبهما . ونستطيع أن نتبين فى هذا الأسلوب أعمق أغوار قلبيهما ، وأدق معالم نفسيتهما ، ومن هنا يعنى الناقدون عناية خاصة بدراسة الأسلوب ، فهو — فضلا عما فيه من عناصر الجمال الفنى ، الذى يبعث فى النفس اللذة والسرور — يعيننا على فهم حقائق نفسية كثيرة قد يغفلها التاريخ ، ولكننا نستكشفها من خلال الاسلوب.

والآن أعرض قصيدتين : احداهما للبحترى ، والاخرى للمتنبى ، قيلتا فى غرض واحد هو العتاب ولكننا بالموازنة بين أسلوبيهما نلمس بينهما فرقا هو الفرق بين نفسيتى قائليهما .

حدثت بين البحترى وممدوحه الوزير الفتح بن خاقان نبوة أعرض عنه بسببها الفتح ، فأنشأ الشاعر قصيدة يستل بها ضغنه ، ويعاتبه ، وحدثت بين المتنبى وممدوحه سيف الدولة نبوة قال فيها المتنبى قصيدة يعاتبه بها أمير حلب .

موقف الشاعرين من الممدوحين جد مختلف فالبحترى لا يعرف لنفسه الا مكانة المادح من الممدوح ، مكانة الشاعر الذى ينعم عليه الفتح ، ويحسن إليه ، فإذا أعرض عنه الوزير يوما ونقت الايام مشرب الشاعر وأظلمت الدنيا فى عينيه .

بينا البحترى لا يطمع فى أعلى من هذه المنزلة نرى المتنبى يضع نفسه ندا لسيف الدولة ، له كل ما يمتاز به الامير من الشجاعة وبعد الهمة والسمو والنبل ، وله فوق ذلك أدبه الذى نظر إليه الاعمى ، وسمع كلماته الاصم ، فهو يمدح سيف الدولة بالهيبة والشجاعة التى تدفعه إلى الالم اذا هرب عدوه ، من غير أن يهزمه فى معركة حربية ، فيقول له :

فوت العدو الذى يممته ظفر ... فى طيه أسف فى طيه نعم
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت ... لك المهابة ما لا تصنع البهم
ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها ... ألا يواريهم أرض ولا علم
أكلما رمت جيشا فانثنى هربا ... تصرفت بك فى آثاره الهمم
عليك هزمهم فى كل معترك ... وما عليك بهم عار اذا انهزموا
أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر ... تصافحت فيه بيض الهند واللمم

فلا يكتفى المتنبى بمدح سيف الدولة وينسى نفسه ، بل يمضى فى تعداد مزاياه التى لا تقل عن مزايا أميره ، فهو شاعر معجز ، لا كفء له فى بلاط الامير ، أما غيره فزعانف ليست بعرب ولا عجم :

أنا الذى نظر الاعمى الى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم
بأى لفظ تقول الشعر زعنفة ... تجوز عندك لا عرب ولا عجم

ثم هو شجاع يخوض المعارك على جواد :

رجلاه فى الركض رجل، واليدان يد وفعله ماتريد الكف والقدم

وبسيف يمشى به بين الصفوف ضاربا يخوض أمواج الموت :

ومرهف سرت بين الجحفلين به حتى ضربت، وموج الموت يلتطم

ثم ينشد هذا البيت التى يجمع بين فضيلتى السيف والقلم ، وهو :

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فليس إذا للأمير صفة إلا شاركه المتنبى فيها ، ويقول بعض الرواة إن أبا فراس كان حاضرا هذا المجلس الذى أنشدت فيه تلك القصيدة فسأل المتنبى : وماذا أبقيت إذا الأمير ، فلم يجبه الشاعر .

وطريقة الشاعرين فى الاعتذار مختلفة كذلك اختلافا واضحا ؛ فالبحترى يتبرأ من الذنب ينفيه عن نفسه ، ويدعى أن الوشاة والأعداء هم الذين أحدثوا هذا الجفاء أما هو فلم يجن ولم يجرم ؛ وأكبر ظنه اذا أن الفتح لا يأخذه بالمظنة ولا يستبيح حقه ولو أنه أجرم وأساء لتمثل نفسه من الحسرة والندم فيقول :

ثناه العدا عنى فأصحب مسرعا وأوهمه الواشون حتى توهما

أعيذك أن أخشاك من غير حادث تبين ؛ أو جرم اليك تقدما

وأكبر ظنى أنك المرء لم تكن تحلل بالظن الذمام المحرما

ولم أعرف الذنب الذى سوغتنى له فأقتل نفسى حسرة وتندما

ولم يكتف البحترى بذلك ؛ بل لجأ إلى أسلوب آخر أكثر لينا من سابقه يعتذر به ؛ فقال للفتح :

ولو كان ماخبرته أو ظننته لما كان غروا أن ألوم وتكرما

وينتهى الاعتذار بأسلوب يلبس ثوب الاسترحام فيقول .

أقر بما لم أجنه متنصلا إليك ، على أنى إخالك ألوما

لى الذنب معروفا ، وإن كنت جاهلا به ، ولك العتبى على وأنعما

وليس بعد ذلك درجة أقل من هذه ينزل إليها الاعتذار والاستعطاف.

أما المتنبى فبجلال وكبرياء يهاجم أعداءه ، ويرميهم بالجهل والغفلة ويحذرهم وينذرهم ، ويعيد سيف الدولة ان يستحسن منهم من كان ذا ورم :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ثم يقسو عليه حين يخاطبه قائلا:

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

والذى خفف من قسوة هذا الأسلوب أن الشاعر قال: وما انتفاع أخى الدنيا بناظره ولم يقل: وما انتفاعك بناظرك.

ثم يعود فيشمخ بأنفه، مدعياً أن من المحال أن يلحقه عيب أو يلم به نقصان مهما بحثوا وفتشوا.

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى ... أنا الثريا وذان الشيب والهرم

وإذاً فلا اعتذار لأنه لا ذنب

ولننظر بعدئذ موقف الشاعرين من غضب صاحبيهما أما البحترى فخائف حزين يبيت فيرى سخط الأمير ليلا مع الليل، ينازعه اللحظ، فيرده كليلا، ويراجعه القول، فيجمجم فيه ولا يبين، يشفق أن تكون نتيجة هذا الغضب فراق الوزير وفراق العراق، بل يشفق من أن تكون النتيجة أشد من هذا وأقسى، فلا يستطيع العودة إلى وطنه الشام سالما، فيستعطف صاحبه، ويذكره بما قاله فيه من شعر حمله الركبان فى الشرق والغرب:

عذيرى من الأيام رنقن مشربى ... وألقينى نحسا من الطير أشأما
وأكسبنى سخط امرىء بت موهنا ... أرى سخطه ليلا مع الليل مظلما
وأصيد ان نازعته اللحظ رده ... كليلا، وإن راجعته القول جمجما
وقد كان سهلا واضحا فتوعرت ... رباه، وطلقا ضاحكا فتجهما
رأيت العراق ناكرتنى وأقسمت ... على صروف الدهر أن أتشأما
وكان رجائى أن أؤوب مسلما ... فصار رجائى أن أؤوب مسلما
وما مانع مما توهمت غير أن ... تذكر بعض الأنس أو تتذمما
ألست الموالى فيك غر قصائد ... هى الأنجم اقتادت مع الليل أنجما

ثناء كأن الروض منه منورا ضحى ، وكأن الوشى فيه مسهما

أما المتنبي فيهدد بالفراق ، ويذر صاحبه بأنه هو الذى سيندم على هذا الفراق ؛ أما الشاعر فعازم على نوى بعيدة تضعف عنها الابل السريعة ، ولم يبق لدى سيف الدولة ، وقد أصبح بلا صديق يخلص له ، ويأنس اليه ، وما يناله من هبات الأمير وعطاياه مهما كثرت تصمه وتعيبه ، لأن الرضا بالاهانة ذل لايحتمله ، ولم يبق وهو يرى نفسه ذا المواهب العالية السامية مساويا من لاحظ له من هذه المواهب التى توجب له التفرد والامتياز ، وإذا خلت البلاد من الصديق ، وأصبح كسب المرء يصمه ويعيبه ، ولم تعد مواهبه كفيلة بأن ينال مكانته الخليقة به ، فأولى له أن يرحل ومعه عزة نفسه وكرامته :

أرى النوى تقتضينى كل مرحلة لا تستقل بها الوخاة الرسم
لئن تركن ضميرا عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد مكان لا صديق به وشر ما يكسب الانسان مايصم
وشر ما قنصته راحتى قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

نرى إذاً فى هذين الأسلوبين نفسيتين مختلفتين إحداهما وادعة هادئة تريد أن تعيش فى سكون وراحة تنعم بالمال فى ظلال الأمن يحيفها شبح الاعراض ، فتسمى لتجنبه بكل ما أوتيت من لين ولباقة ، لا يثقل عليه الاستعطاف ولا يجد غضاضة فى الاسترحام . بينما النفسية الثانية ثائرة متعالية ، ترى نفسها أعظم من حولها ، ولا تبيع عزتها من أجل البقاء فى ظل عيش رغد وديع .

قد نرى عند البحترى ثورة وفورانا ، ولكنها ثورة تنتهى بالمواددعة واللين ، فالثوره الوحيدة التى ثارها فى قصيدته هى قوله :

ولو أننى وقرت شعرى وقاره وأجللت مدحى فيك أن يتهضما
لأكبرت أن أوى اليك بإصبع تضرع أو أدنى لمعذرة فما
وكان الذى بأنى به الدهر هينا على ، ولو كان الحمام المقدما

وتختتم بهذا البيت :

أعد نظرا فيما تسخطت هل ترى مقالا دنيا أو فعالا مذمما

فثورته تنتهى بطلبه إعادة النظر فى قضيته ليرى إن كان ثمة مايدعو إلى إدانته ، ولا تنتهى بالتحذير والوعيد الذى هو النتيجة الطبعية للثورة .

وقد نرى عند المتنبى إلى جانب الثورة هدوءا ووداعة ولكنه هدوء الشخص المعتز بنفسه ، ووداعة الخليل يعاتب خليله ، لا وداعة المولى يخاطب سيده ، فهو يقول :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمى وحالى عنده سقم

مالى أكتم حبا قد برى جسدى وتدعى حب سيف الدولة الأمم

إن كان يجمعنا حب لغرته فليت أنا بقدر الحب نقتسم

بل يزداد رقة حتى يقول :

إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم

يامن يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شىء بعدكم عدم

ولكنها رقة ليس فيها أثر للاستكانة ، وهى أشبه بهذه التى تكون بين المحب ومن يحب .

احمد احمد بدوى
مدرس بحلوان الثانوية للبنين